وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
« ٢٠ »

أبو فراس الحمداني



إعداد: د.شوقي المعرّي

أبو فراس الحمداني

رسم الغلاف

عبد الناصر الشعال

د. شوقي المعرّي

أبـو فراس الحَمْداني

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣م

أبو فراس الحمداني / شوقي المعري .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٣م .- ٧٢ ص؛ ٢٠ سم .

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ٢٠)

١- ٨١١,٥٣٠٠٩ ط م ع ر أ ٢- ٩٢٨: أبو فراس الحمداني م ٣- العنوان ٤- المعري

مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

« ٢٠ »

m

لا شكَّ في أنّ عدداً من الشعراء العرب كان لهم دورٌ في حياة الناس، منذ العصر الجاهلي حتَّى العصر الحديث الذي نحن فيه..

ولا شكَّ في أنّ شهرة هؤلاء الشعراء كانت بسبب أشياء ميَّزت شخصياتهم، فكانوا أعلاماً تداولتهم كتب الأدب والشعر على مرِّ العصور، وهؤلاء الأعلام نفخر بهم لأنَّهم علّمونا، وأعطونا بعضاً ممَّا كانوا يتميَّزون به من خلال شعرهم، وأنت لا تستطيع أن تكتب شيئاً عن الأدب إلاّ وتذكرهم، وأنت لا تقدر أن تردّد بعض الأشعار إلاّ وكانت دواوينهم قريبة من يديك ليصل هذا الشعر إلى قلبك فتسّر به، وإلى عقلك فتتعلَّم منه.

وأبو فراس الحمْداني واحد من هؤلاء الشعراء الذين تركوا بصمة في كتب الأدب، وتردّد صدى شعرهم بين جنباتنا..

فقد تميَّزت شخصيَّة هذا الشاعر بصفات كثيرة استطعت أن ألمّ بأهمِّ جوانب هذه الشخصيَّة من خلال شعره، أي أنَّني قرأت شعره ثمَّ وصلت إلى ما أثبِّته، لأنَّ هذا يفيد أكثر، لا أن تتكئ على مَنْ تحدَّث عنه أو ترجم له.. من هنا كان العنوان الفرعيُّ «شخصيّته من شعره» أمَّا لماذا اخترت شخصيته، فهذا لأنَّني وجدت أنَّ لأبي فراس الحمداني شخصيَّة متميّزة، وإن كانت قد توزّعت بين الطموح والدموع، الطموح إلى المجد وتسلّم السلطة لأنَّه كان يرى في نفسه الإباء والشهامة والعزَّة وهذه مميزات القائد الذي لم يكن يخاف من عدوّ، ولا من ساحة المعركة، بل كان خلاف ذلك، كان يرمي بنفسه إلى تلك الساحات غير هيّاب من الموت.

وهذا كان يلزمه الفخر الذي أجاد فيه، الفخر بالحسب والنسب والأسرة العظيمة التي كان منها سيف الدولة الحمداني. وسيف الدولة هذا هو ابن عمِّ الشاعر الذي ربّاه وأنشأه، لكنَّه خذله لمّا سُجن في بلاد الروم، فتركه وراء القضبان يناجي ابنته وأمّه، والحمامة التي ذكَّرته بآلامه ومصائبه، فَرقَّ قلبه كالطفل الذي يبحث عمّن يعينه ويساعده.. بعد أن كثر حسَّاده، لكنَّه كان المؤمن بقدر الله وقضائه فالتجأ إليه في مواقف كثيرة.

هذه هي بعض ملامح شخصيَّة شاعرنا أبي فراس الحمداني قدّمتها في هذا الكُتَيب بعد تقديم عن العصر الذي عاش فيه، والمعروف أنَّه عصر الازدهــار والحضارة، العصر العبَّاسي، وبعد أن ترجمت له ترجمة مختصرة كما حياته التي لم تدم طويلاً.

وبعد.. فإني أرجو أن تكون شخصيَّة أبي فراس شخصيَّة محببَّة، شخصيَّة قويَّة أبيّة عزيزة النفس. إنَّها شخصيَّة من شخصيَّات كثيرة يحفل بها تاريخنا وتراثنا الذي يجب أن نعيد بهاءه إلى أطفالنا وفتياننا عساهم يتعلَّمون منه ويقبسون أهمَّ ما فيه ليكون دليلاً لهم في طريقهم نحو المستقبل، المستقبل الذي ننشد أن يكون دائماً عظيماً، والله من وراء القصد.

دمشق ٢٠٠٩/٦/٢٣

شوقي المعرّي

أبو فراس الحَمْداني

أبو فراس الحمداني، اسمه الحارث بن سعيد بن حمدان، يعود أصله العربيّ من جهة أعمامه إلى قبيلة تغلب، ومن جهة أخواله إلى قبيلة تميم، ولد عام ٩٣٢ م /٣٢٠هـ في مدينة الموصل في العراق على الأرجح ، حيث كان والداه يعيشان هناك وقد قُتِلَ والده من قِبَلِ ابن أخيه، وكان أبو فراس يبلغ من العمر ثلاث سنوات.

فنشأ أبو فراس يتيماً في حضن أمّه ، وقد عطف عليه ابن عمِّه القائد المشهور سيف الدولة الحمداني الذي كان له أثر كبير في حياة الدولة الحمدانيَّة ، وهي دولة عربيَّة يمتدُّ نسبها إلى قبيلة تغلب بن وائل. وحكمت هذه الدولة الموصل، وقد تداول الحمدانيّون حكم هذه الإمارة واحداً بعد واحد، ولم

يكونوا يخرجون على طاعة الدولة العبَّاسيَّة الدولة الأمّ التي كان يرجع إليها كلّ الدول التي قامت وقتئذٍ، وظلَّت الدولة على هذه الحال إلى أن أزال حكمها عضد الدولة بن بويه وهو الذي تنتسب إليه الدولة البويهيَّة، وتفرّق بنو حمدان في الولايات العربيَّة فبعضهم دخل في الدولة البويهيَّة وبعضهم الآخر ارتحل إلى مصر، أمَّا سيف الدولة الحمداني القائد المشهور فقد توجّه إلى مدينة حلب واستولى عليها عام ٣٣٣هـ/٩٤٤م، ثمَّ استولى على مدينة حمص وتابع سيره باتّجاه دمشق فدخلها وأقام فيها لكنَّ حكمه لمدينة دمشق لم يدم طويلاً فقد عاد كافور الإخشيدي إلى هذه المدينة وارتجعها من سيف الدولة الحمداني. ومَثَّلُ الدولة الحمدانيَّة مَثَل معظم الدويلات التي كانت قائمة، فقد قامت بينها وبين دولة الروم حروب عدَّة، ومعارك كثيرة، وقد أبلى فيها قائدها سيف الدولة الحمداني بلاءً حسناً وهو القائد المشهور الذي كانت تدين له مناطق كثيرة، ودافع عن دولته ولاسيَّما مدينة حلب دفاعاً كبيراً ولم يدع دولة الروم تستقرّ في هذه المدينة طوال حياته. لكنّ سيف الدولة يموت في عام ٣٥٦

هــ / ٩٦٦م بعد أن حكم الدولة نحو ثلاث وعشرين سنة، لكنّ مَنْ جاء بعده لم يستطع المحافظة على الدولة وعلى حدودها، فسقطت دولتهم واستطاع الفاطميون الاستيلاء على حلب.

وقد كان أبو فراس الحمداني في جملة من ضمّهم بلاط سيف الدولة ، فشبّ في كنف ابن عمّه ورعايته ، فشمله بحنانه ورعايته وعطفه ، وميّزه عن غيره بكثير من الإكرام والاهتمام ولاسيَّما لمَّا رأى ما عنده من ذكاء ونجابة وأخلاق وصفات محمودة ، فرسخت محبَّة سيف الدولة في قلب أبي فراس الحمداني مذ كان صبيًّا.

لكنَّ هذا الصبيّ لم يكن صغير الجسم بل كان طويلاً وذا جسم كبير ممَّا يدلّ على قوَّته وبطشه ، وشجاعته ، حتَّى إنَّه كان يفتخر بهذا ، لكنَّ الشيب غزا رأسه وهو ابن العشرين وتساءل عن سبب هذا الوافد الجديد والغزو المبكّر الذي لاح على عذاريه ، وهو الشَّعر الذي ينبت على جانب الوجه المحاذي للأذن يقول في هذا شعراً:

وما زادَتْ علــى العِــشرين ســنّي

فما عُذر الــشيب إلــى عــذاري؟

ولكنَّه يحاول أن يقبل بهذا الوافد الجديد، لأنَّه دليل وقار يكون للشيوخ يقول:

وما استمتعْتُ من داعِي التّــصابي

إلــى أن جــاءني داعِــي الوقــارِ

فهو لم يستمتع بعد بحياة الشباب التي يقضيها الإنسان في اللهو واللعب ، ومع هذا قَبِله ، مع أنَّه يرى أنّ الشيب ظلمه، يقول :

أيا شَــيبي ظَلَمْــت! ويــا شَــبابي

لقــد غُــودِرت منــك بِــشرٍّ جــار

إنَّ هذا لم يمنعه من أن يفخر بأنَّه فتى شجاع يستطيع أن يتفوَّق على غيره، وينتصر على الأعداء إذا ما لاقاهم في ساحة المعركة، بل إنَّ فخره العظيم بنفسه جعله يظنّ نفسه أنَّه لم تلد امرأة مثله، يتَّصف بطول القامة وسعة ما بين المنكبين إذ يقول :

متى تخلفُ الأيَّامُ مِثلي لكــم فتـــىً

طويلَ نجادِ السّيفِ رَحْــبَ المقلّــد

وقد كان شاعرنا كغيره من أبناء الملوك والخلفاء والولاة الذين يتميّزون من غيرهم بصفات عظيمة وحميدة، لا تخلو من بعض صفات الدّلال والراحة ، مع أنّ معظم أيَّامه قضاها في ميادين المعركة ، في حروب وغزوات تعرَّض فيها للأسر والاعتقال والطعن ولكنَّه كان كلَّما سنحت له الفرصة أن يتلذَّذ بطيب العيش كان يستغلّها ويحاول أن يعيش تلك الساعات الجميلة وكأنَّني به كان يشعر أنّ حياته لن تطول فقد توفي عن سبعة وثلاثين عاماً وكأنَّه كان يشعر هذا الشعور، وهذا واضح في خمسة أبيات شعريَّة خاطب فيها ابنته وهو يموت يقول لها:

أبنيّتـــــي لا تَجْزَعِــــي ... كلُّ الأنــامِ إلــى ذَهــابْ

أبنيّتـــي صَـبْراً جَميـــ ... ـلاً للجليلِ من المُـصابْ

ابْكَـــي أبـــاك واندبيـــ ... ـه وراء سترِكِ والحجابْ

قـــولي إذا نـــاديتِني ... وعييْتِ عن ردّ الجـوابْ

زينُ الشّباب، أبــو فــرا   س، لم يُمتّــع بالــشبابْ

يطلب من ابنته ألاّ تجزع أو تخاف أو تتأثَّر لأنَّ الموت مصير كلّ إنسان، ويطلب منها أيضاً أن تصبر كثيراً لما حلَّ بها من مصاب أليم، على فقدانه وهو الذي مات في عزّ شبابه لكنَّه تمتَّع بالشباب كغيره. وقد وصل أبو فراس إلى شعور أنَّه يتميّز بشخصيَّة متميّزة، لأنَّه كان يرى في نفسه أشياء مثيرة لم يصل إليها كثير من الناس، وكان يظهرها لنا وكأنَّه يريد أن يقول إنَّ شخصيّته نموذجيَّة لكلّ مَنْ أراد أن يكون ذا خلق عظيم يشار إليه بالبنان، لذلك كان يملك من الأخلاق الحميدة الكثير الكثير.

من هذه الأخلاق أنَّه كان بعيداً جداً عن الكذب فهو قد يكون جاهداً أو ناكراً لأخيه، أو لصديقه يحتمل الآلام، يذرف الدموع على فراق مَنْ يحبّ. لكنَّ نفسه تأبى الكذب، يقول:

وإنّي لمجتهدٌ في الجُحودِ   ولكنّ نفسي تأبى الكَــذبْ

وبالمقابل فهو يكره مَنْ يكذب، وبرأيه إنّ الكاذب هو مَنْ يتنكَّر للحبيب، أو للصديق، أو للقريب وأكثر من ذلك يرى

أنّ الصادق هو مَنْ يجود بنفسه أغلى ما يملكه في سبيل الحبيب. وهذا الحبيب قد يكون الأخ والصديق والقريب، لأنَّه يرى أنّ الأخ مَنْ يصفو بودّه لأخيه الإنسان، ومن يصفح عنه ويغفر له أخطاءه لأنَّ الزمان صار زمان كذب ونفاق ورياء.

وممّا تتَّصف به شخصيَّة أبي فراس الصبر على النائبات وأحوال مَنْ لا يجد منهم جميلاً، إنَّه يصبر على أحلك الأيَّام وأصعبها، وعلى أشدّ ما يمكن أن يحلّ به من مصائب.

صبورٌ ولو لــم تبــقَ منّــي بقيّــةٌ

قَؤول ولــو أنّ الــسيوفَ جــواب

وما يقرب من الصبر، الحلم الذي يزين عقول الناس، الحلم على الناس الذين يجهلون ما يعملون ويفعلون. إنّ أبا فراس يستطيع الصبر والحلم، لكنَّ الهيبة التي يتميَّز بها والتي تجعل الآخرين يهابون جانبه فيخافونه.

وكذلك كان جاره ينعمُ بالأمان إذا ما أراد أن يستجير به، وهذه صفة من صفات العربيّ المجيدة، الكرم الذي كان يتحلّى

به، إنّها الشيمة الأولى من شيم الضيافة لمن يريد أن يحلَّ ضيفاً، إنَّه يسرع إلى إطعام الضيف، يقدّم له ما تملي عليه أخلاقه.

أنا الجارُ لا زادي بطــيءٌ علــيهم

ولا دون مالي في الحــوادثِ بــاب

وفوق هذا وذاك فإنَّه يعلو على الجراح ويسامح ويصفح، لا يتطرَّف بآرائه وأفكاره بل يُؤْمَنُ جانبه ويُحمَد، ويستطيع كلُّ إنسان أن يرتاح له، وإذا ما لقي بعداً وتجافياً من صاحب، صاحَبَه وقرَّبه إلى قلبه ونفسه، وإذا ما آساه أحدهم فإنَّه يسامحه، ويدفع عنه الشرَّ إذا ما تعرَّض له.

ويقابل هذه الشيم أنَّه إنسان أبيّ شهم تأبى نفسه أن يطعم أو يأكل من أيِّ طعام، وأن يشرب من أيِّ شراب وأن يرضى بأيِّ مكسب يمكن أن يحقّقه، إنَّه يرفض كلَّ ما يُقدَّم له، وكلَّ ما يراه الآخرون جميلاً، إنَّه يرفض هذا كلَّه:

إذا لم تكنْ بالعزّ تلك المكاسِبُ

بل إنَّه يعتبر أنَّ أيَّ إنسان إذا انجرف وراء رغباته الصغيرة فإنَّه لا يعدّ من الأسياد، فهو لا يقبل بكلّ المكاسب ولا الصغائر كي يظلَّ سيّداً حرّاً.

ومن صفاته التي تحلّى بها أيضاً كتمان السرّ وهذه لعمري صفة محمودة تحفظ الآخرين وتبعد عنهم الشرّ يقول:

يا قومُ إنِّيْ امـــرؤ كتـــومُ   تَـــصْحبني مقلـــةٌ نمـــومُ

ويكاد شاعرنا أبو فراس يلخّص صفات وأخلاق حميدة أخرى ببيت من الشعر جميل، نقرؤه معاً.. يقوله في أحد الأشخاص وكأنَّه يريد أن يقول: هذه هي صفاتي التي أتمنَّى أن أراها في كلّ إنسان صديق، محبّ..

صادِق الودّ، خالِص العَهْـد، أُنْـــسي

في حُـــضوري مُحـــافظ فـــي مَغيبِـــي

إنَّه يرى الأخلاق الحميدة تتمثَّل في صدق الودّ ونقائه بين الناس، وفي الإخلاص للعهد الذي يقسم به الإنسان وما أعظم من أن يفي الإنسان بعهد أقسمه أمام الآخرين!

وفي الأنس إذا حضر بين الناس ليكون يحمل بصدق كلمة الإنسان، فالأنس والإنسان والإنسانيَّة من جذر واحد تميّزه هذه الكلمات عن الآخرين.. أمَّا الصفة الأخرى فهي الحفاظ وعدم اغتياب الناس.. فمن يغتب الناس، يكذب، ومَنْ

يغتب الناس لا يُؤْمَن جانبه لذلك يرى أن يحافظ الإنسان على مثل هذه الصفات التي يراها في نفسه، ولو لم تكن عنده لما طلبها أن تكون عند الآخرين.

إنّ أبا فراس يرى في أخلاقه التي تميَّز بها وزيّنت شرفه وعلت جبينه، إنَّه يراها أمراً عظيماً لا يصل إليه الكثيرون، لذلك تراهم يغارون منه بل يحسدونه، وهو لا يهتمُّ لهذا ولا يبالي بل إنَّه يعتبر هذا الأمر شرفاً له..

ومِن شَـــرَفي أن لا يَـــزال يَعيبُنـــي
حَسودٌ على الأمرِ الذي هو عائـــبُ
رَمتْني عيونُ الناسِ حتَّـــى أظنَّهـــا
ستحسدُني في الحاسدينَ الكواكـــبُ

حتَّى الكواكب والنجوم التي لا يصل إليها أحدنا غارت وحسدت شاعرنا أبا فراس فلولا ما كان يتميَّز به لما حسدته ولولا المرتبة السامية التي وصل إليها قريباً من النجوم لما حسدته تلك النجوم.

وهو يرى فوق ذلك أنَّ هؤلاء الحسَّاد يحاولون دائماً أن يقلّلوا من شأنه ويخفّفوا من سطوته وشهرته، لكنَّ الله يمنحه

أكثر من ذلك الكثير، يحاولون أن يغمطوه حقّه لكنّ الله يوقد له هذا الحقّ ويجعله أكثر ضياءً، يحاولون أن ينقصوا من شأنه ومجده، لكنَّ الله هو الواهب هو الذي يهب الإنسان ما يريد، فكلَّما حُسِدَ زاده الله خيراً وعطاءً وقوَّة ومنزلة يفاخر بها الأعداء.

ويعجب الشاعر ببيت من عيون الشعر الذي يتردَّد على أسماع الناس ويحفظونه لجماله، يعجب من المحبوبة التي تسأل عن أبي فراس فيردّ قائلاً:

تُسائِلني مَنْ أنــتَ؟ وهــي عليمــةٌ

وهل بفتىً مثلي على حالِــه نكــرُ؟

إنَّه يرى أنَّ كلَّ الناس يعرفونه لأخلاقه وشيمه.

إنَّ مَنْ يتمتَّع بالخلق الرفيع، وبالأخلاق الحميدة من الفروسية والشجاعة إلى الإباء والعفَّة، إلى النسب الرفيع والحسب الكريم.

إنّ مَنْ يتمتَّع بهذا كلِّه وغيره فإنَّه لا بدَّ سيفخر بما يحمله من صفات تميَّز بها عن غيره، لأنَّ مَنْ يحمل هذه الصفات

سيتفوَّق على الآخرين وسيبزّهم وسيفاخر بما هو فيه، ومَنْ يقرأ ديوان الشاعر يجد هذا جليَّاً في كثير من القصائد، ويمكن له أن يلاحظ أنَّ فخره كان موزَّعاً بين عدد من الصفات والأخلاق التي تحلّت بها شخصيَّة الشاعر. ونستطيع الوقوف عند أبرز هذه الصفات:

أ- فقد افتخر كثيراً **بشجاعته وإقدامه** في ساحة المعارك وبلائه البلاء الحسن في وجه العدوّ أو الأعداء، هذا غير الصفات الحميدة التي كان يتمتَّع بها، فقد رأيناه يرفض ويأبى الكذب وهو:

صبورٌ ولو لـــم تَبــقَ منّـــي بقيّـــةٌ

قؤولُ ولــو أنَّ الــسّيوفَ جــوابُ

وَقورٌ وأهــوالُ الزّمـــان تنوشُــني

وللمــوتِ حــولي جِيئــة وذهـــابُ

وهو الجار الذي لم يكن يبطئ في إغاثة الجار أو الملهوف. ويقدّم له الزاد سريعاً لا بطيئاً، وهو العفيف الطاهر الشريف الذي لم تكن العوراء تحرف دربه، أو تغيّر من مبادئه ويرضى بالقليل:

وما زِلْتُ أرضـــى بالَقليـــلِ محبّــةً

لــديك، ومـــادونَ الكثِيـــر حجـــابُ

وهذا القليل الذي كان يقنع به جعله لا يشرب كلَّ مايشربه الناس، ولا يطعم كلّ ما يطعمه الآخرون، بل فوق ذلك إنَّه لا يرضى بالمكاسب والمال إذا لم تكن بالعزّ:

ولا أنا راضٍ إن كثُــرْنَ مكاسِــبي

إذا لم تكنْ بـــالعزّ تلـــك المكاســـبُ

لقد كثرت مواهبه وفضائله على الناس، حتَّى إنَّه يفخر بأنْ لا أحد من الناس مثله قد خُصَّ بما خصَّه الله به، فقد استطاع حلّ القيود في وقت عجز الناس جميعهم عن حلّها، ويرى أنَّ الروم تنقاد له أسرى، وهو الذي أوسع كرامةً، وهو الذي صار في نعماء يشكرها ولا ينكرها كما أنكرها غيره وقال إنّ الله نشر له محاسنه:

وما شاء ربيّ غير نَشر مَحاســنِي

وأن يعرِفوا ماقد عَرِفْت من الفَضْل

كان أبو فراس يلخّص ببيتٍ من الشعر ما كان يتحلَّى به من صفات، فقد اختصر في بيت من الشعر أنَّ عتاده هو النفس الأبيَّة:

عِتادي لــدفع الهــمّ نفــس أبيّــة

وقلْب على ما شِئْت منه مُــصاحِب

ومع هذا فإنَّ حسد الناس له لم يكن ليقلّل من شأنه حتَّى إنَّه شعر أنَّ النجوم تحسده:

رمتْني عيونُ النّاسِ حتَّــى أظنَّهــا

ستحسدُني في الحاسدينَ الكَواكــبُ

لكنَّ الله يفضّله على غيره، ويمنحه كلّ ما أراد الآخرون نزعه منه.

إنَّ أبا فراس كان يرى نفسه فوق الآخرين مرتبة وأعلاهم منزلة، وقد اختصر كلّ ما يتَّصف به من فضائل وأعمال بست فقال:

وأنا الذي فضلَ الأنــامَ فأصــبَحوا

طوعاً لـــه قَــسراً بــستّ فــضائلِ

بصواهـــلٍ، وعوامـــلٍ، وقبائـــلٍ

ومكـــارمٍ وذوابـــلٍ ومناصـــلِ

لقد لاحظنا أنّ فخر أبي فراس الحمداني يعود إلى أسباب كثيرة، يأتي في مقدّمتها أنَّه ينتسب إلى تلك الأسرة التي

تعود بحسبها إلى ماض عريق مجيد، وهذا ما يذكّرنا بفخر الشعراء الذين سبقوه في العصور الجاهليَّة والإسلاميَّة، وهذا ما نجده أيضاً عند كلّ مَنْ يرى في نفسه الشجاعة، والقوَّة، مثل عنترة العبسيّ، وطرفة بن العبد، وغيرهما..

إنّ مَنْ يقرأ هذا الفخر يستشفُّ منه حكماً وعبراً ومواقف كان الشاعر قصد إليها، وعمد أن يتعلّم منها الآخرون، أو لنقل، كانت هذه الأشعار تشجيعاً لكلّ مَنْ يريد أن يفخر بنفسه، ولكنّ هذا كان مُبَالغاً فيه في بعض الأحيان، لا يروق للبعض، ولكن مَنْ يفخر فإنَّما يفخر ويزدهي بنفسه، ويعجب بما يملك، وإلاّ لما افتخر.

لقد عرفنا صفات كثيرة وقرأنا منها الكثير في أشعار الشعراء العرب، وقد شكَّلت هذه الأشعار غرضاً شعريَّاً تميّز به الشعر العربيّ على مرّ العصور، تفاوت من شاعر إلى آخر، ومن عصر إلى عصر، وذلك بحسب طبيعة كلّ شاعر فهو إنسان، وكثيراً ما كان الإنسان ولا يزال يفخر بكلّ صفاته المحمودة أو التي يظنّ أنَّها محمودة، ليعلو شأنه، ويسمو بنفسه إلى مراتب عليا..

وربّما كان هدف أبي فراس الحمداني من هذا كلّه أن ينبّه ابن عمَّه إليه فيجعله قائداً عظيماً، لأنَّه برأيه يستحقّ هذا، وهذه الصفات من صفات القادة العسكريين، ولا يقلّ أهميَّة وشأناً عن هذه الأخلاق والصفات ما تحلّى به من الشجاعة، إنَّ شجاعة أبي فراس الحمداني تُولد من فخره بنفسه الذي رأيناه في مواقف كثيرة، وصفات متعدّدة، ولا شكَّ في أنَّ مَنْ يتَّصف بكلّ ما تقدّم من صفات هو إنسان شجاع قويّ، بل إنّ كلَّ ما امتدح به أبو فراس نفسه كان يقصد من ورائه المنزلة الرفيعة، وما من شكّ في أنّ المنزلة الرفيعة تتطلَّب شجاعة كبيرة في أماكن كثيرة من ديوانه، فهو يفخر بأنَّه ينتزع ديار المعتدين قسراً، ويغتصب أرضهم اغتصاباً يقول:

ديـــــارُهم انتزَعْناهـــــا اقتِـــساراً

وأرضُـــهم اغتـــصَبْناها اغتِـــصابا

ولِمَ لا؟ أليس ينتسب إلى قوم قوي شجاع يندفع نحو الموت في سبيل التغلّب على الأعداء وتحقيق النصر؟ وهذه الصفة الأولى التي يحبُّ أن يتحلّى بها القادة الشجعان في مواجهة المعتدين وعدم الخوف والجبن أمامهم.

ولشدّ ما تأثَّر لمَّا وصف أحد قادة الروم قوم أبي فراس بأنَّهم قوم كتّاب لا يعرفون فنون الحرب والقتال. فخاطب أحد قادتهم في قصيدة يفخر بها بنفسه وبأنَّه وقومه أسود الحرب الذين استطاعوا أن يقتلوا من قوم هذا القائد الكثير الكثير ثمَّ يذكّره بأنَّهما التقيا في أكثر من معركة

لقد جَمَعتنا الحَربُ من قبـلِ هـذه
فكنّا بها أُسْـداً وكنـتَ بهـا كَلبـا

ثمَّ يطلب منه أن يسأل كلَّ الأقوام الذين يعرفهم ويعدّدهم كلّهم، فكيف أنَّه وقومه استطاعوا هزمهم بالسيف لا بالقلم الذي ادَّعوا أنَّنا أصحاب له لا أصحاب للسيف.

إنَّه يرى الموت ولكن يخوضه فلا يخاف إذا كان الموت قدَّامه، وخلفه ميادين الحرب، وهو لا يعـود من ساحة المعركة إلاّ وقد حطَّم رمحه على رؤوس الأعداء وخضَّـبه من دمائهم:

ولا أعودُ برُمحي غيـرَ مُنحَطِـم
ولا أروحُ بسَيفي غيـرَ مُختَـضبِ

لقد كان أبو فراس يعمل جاهداً لإظهار قدرته وشجاعته أمام ابن عمّه سيف الدولة إلاّ إنّ شجاعته هذه لم تكن تقنع ابن عمّه سيف الدولة بأنَّه الشجاع القويّ الذي يمكن الوثوق به، وبقوله له: حتَّى الأعداء يعترفون بي رغماً عنهم..

حتَّى تقولَ لــك الأعــداءُ راغمــةً

أضحى ابنُ عمّك هذا فارسَ العرب

إنَّه ليس بجبان، ولا يضعف عند لقاء العدوّ، وهذه حال الشجاع الذي يخوض المعارك، بل يدفع بنفسه نحوها من غير خَوف:

ولا أنا وانٍ عنــد مختلــفِ القنــا

ولا بجبانٍ عنــد زَحْــفِ الكتائــبِ

ب- كما افتخر **بحسبه ونسبه،** بآبائه وأجداده، علماً بأنَّه عاتبهم مراراً لمَّا رأى أنَّهم خانوه أو غدروا به، ولاسيَّما سيف الدولة الذي لم يَفتدِه بسرعة، وكان بفخره هذا يقصد إلى أمر واحد، التقرّب من ابن عمّه، وكأنَّه يريد أن يقول له: إنَّني أنا ابن عمّك الذي سيدافع معك عن حمى الوطن وإنّ الآخرين لن يكونوا مثلي، فقد افتخر بقومه الذي وصل به المجد إلى نجوم السماء التي لا يستطيع أن يصلها أحد:

أيُّها المُبتغـــي مَحــلَّ بنـــي حمـــــ
ـــــدان مهـــلاً أتبلـــغ الجـــوزاءَ؟

فَـــضلوا النـــاسَ رِفعـــةً وســـناءً
وَعَلـــــوْهم تكرّمــــاً وعـــــلاءَ

ولمَّا تأخَّر سيف الدولة عن افتدائه ذكَّره بأنَّهما يعودان إلى أصل واحد، وإلى نسب واحد يعترف به الآخرون:

وفرعي فرعُــك الــسّامي المعلّــى
وأصلي أصــلُك الزاكــي وحــسبُ

ثم يعدّد أعمامه وأخواله، ويشيد بمناقبهم الحميدة، ويقول لسيف الدولة:

وفـــضلي تعجـــزُ الفـــضَلاءُ عنـــه
لأنَّـــك أصـــلهُ والمجـــدُ تـــربُ

ويقول في قصيدة أخرى:

وإنَّني لَمِنْ قـــومٍ كـــرامٍ أصـــولُهم
بهاليـــل أبطـــالٍ كـــرامِ المناســـبِ

إنَّه ينتسب إلى أسرة بَنَتْ فسما بناؤها، وقارب النجوم سموّاً وعلوّاً وشموخاً:

وأنا ابنُ مَنْ شَاد المكارمَ وابتنـــى
خُططَ المعالي حيــثُ حــلّ الفرقــدُ

إنَّنا نلحظ أنَّ هذا الفخر إنَّما هو الفخر الذي يريد الشاعر من ورائه إظهار صفاته أمام ابن عمّه، لأنَّه كان يطمح في الحكم والسيطرة، لكنّ هذا لم يتحقَّق له كما سنرى.

لقد شعر أبو فراس الحمداني أنَّ الأيَّام لم تلد مثله فتى شديداً على البأس والمصاعب، فتى غير مردود اللسان ولا اليد، يطاعن ويحارب ليدفع عن أحساب قومه العدوّ بلسانه وسيفه، لكنَّه يعترف أنَّه لم يصل إلى ما وصل إليه لولا ابن عمَّه سيف الدولة الذي ربَّاه وأنشأه، فهو الذي عرَّفه طرق الهوى والعُلا والطرق التي أوصلته إلى المجد الذي يفاخر به.

إنّ مَنْ يتحلَّى بالصفات الحسنة والأخلاق الحميدة هو بلا شكّ بعيد عن صفات السوء التي رآها عند كثيرين، بل إنّه سيذمُّها، ويبتعد عنها، ويحذّر الآخرين من الوقوع فيها، فالصفات التي تتجلَّى في الصدق والوفاء والتسامح والصبر، وإكرام الجار وإغاثة الملهوف إنَّما تكون من أخلاق الكبار

الذين كانوا هدفاً له وأراد أن يكون واحداً منهم. ومن أهمّ الصفات الأخلاقيَّة التي أرادها له ولغيره التواضع، لأنّ التكبّر لا يجمّل الإنسان ولا يرفع من شأنه، ولا يجعله عظيماً، يريد أبو فراس أن يقول للإنسان أن اتَّضع ولاتكن متكبّراً ولا متعجرفاً ولا متغطرساً.. يقول الشاعر:

فإن جلّ هــذا الأمــرُ فــاللهُ فوقَــه

وإن عَظُمَ المَطلــوبُ فــاللهُ أعظــمُ

والله **قادر** على كلّ شيء هكذا تعلَّمنا، وهذا ما يعرفه كلُّ إنسان مؤمن، إنَّه القادر على جمع ما تفرَّق ولمّ الشمل، ووصل ما انقطع بين الناس:

والله يجمعُنا بعــزّ دائــمٍ وسلامةٍ موصولةٍ ببقــاءِ

والله وحده القادر على شفاء الإنسان ممّا أصابه معنويّاً أو حسيّاً، فلا الطبيب قادر على أن يشفي ولا الدواء، بل الله تعالى هو الذي يشفي، وهو الملجأ الوحيد، هذا ما يعرفه ويعلمه كلُّ إنسان وأبو فراس واحد من الناس:

أنـــا إن علّلــت نفــسي بطبيــــــــب أو دواءِ

عـــــالِمٌ أنْ لـــــيسَ إلاَّ بيــــــدِ الله شـــــفائي

وكان لا يرى عند الناس ما يريد تحقيقه، أو ما يعينه في تحقيقه، لأنَّه رأى ابتعاد الناس عنه، ومحاولتهم الحطّ من شأنه ولاسيَّما عند ابن عمِّه..

وما الأمــرُ إلاّ فــي يــدِ الله كلّــه

فما شاءَ من أمر فَمَنْ ذا يُغالبـــه ؟

وثمَّة ثلاثة أبيات جميلة قالها شاعرنا أبو فراس الحمداني تؤيّد ما ذهبنا إليه يقول:

يـــا مُعجبـــاً بنجومـــهِ لا النحسُ منك ولا السّعادهْ

الله يُـــنقصُ مـــا يَـــشا ءُ ومـــن يـدِ اللهِ الزّيـــادهْ

دعْ ما أريدُ ومـــا تريــــــــــد فـــإنّ لله الإرادهْ

وهذا ما طلبه عندما شعر بخذلان ابن عمّه إيَّاه وهو في السجن، إنَّ أبا فراس يخضع لعدل الله وأمره وقدرته فلا أحد يمكن أن يعينه ويساعده على مصابه. وهو الذي وصف حاله التي وصل إليها، لكنَّه لم ييئس:

مصابي جَليل والعَزاءُ جَميل وظنّي بأنّ الله سوف يَـديلُ

ولم يكن أبو فراس يجد من ينصره على من يشاء وينصر كلّ مَنْ يطلب منه أن يكون له نصيراً على الحقّ والفضائل، ولن يكون نصير المعتدي ولا نصير المؤذي.. والله إذا ما ناصر أحداً فإنَّه يحقّق له النصر وإن تكاثرت عليه الناس من كلّ جهة، ومن كلّ حدب وصوب:

تناصَرت الأحياءُ من كـلّ وُجهـةٍ

ولـيسَ لــه إلاَّ مــن الله ناصـرُ

أمّا رحمة الله فهي واسعة تسع كلَّ البشر وكلَّ الناس وكلَّ مؤمن به، لذلك ترانا نبحث عن رحمته في كلّ أمر ينوبنا أو يصيبنا، وأبو فراس يسأله حسن الختام، فإنَّ رحمة الله أوَّلاً وأخيراً هي الملاذ لنا جميعاً:

وأســأله حُــسْنَ الختــامِ، فــإنَّني

لرحمتِه في البدءِ والخَـتمِ طالـبُ

ورحمة الله تتمثَّل للإنسان في كلّ زمان ومكان، فهو لا يثقل على الإنسان، ولا يكرهه على شيء، بل إنَّه لا يحمّله فوق طاقته، ليستطيع تجاوز ما يقع فيه من أحداث وآلام.. وقد استعار الشاعر أبو فراس آية من القرآن الكريم وضمَّنها في شعره فقال:

لا أحملُ الهَجرَ منه والغــرامَ بـــه
ما كلّف الله نفساً فوقَ مـــا تَـــسعُ

والله عليم بكلِّ شيء ويعرف كلَّ شيء، وهو أكبر من كلِّ شيء ولا أحد ينكر هذا فلذلك يطلب منه دائماً العون والمساعدة. وقد أكثر أبو فراس الحمداني من الإشارة إلى هذا في شعره كعبارة «يعلم الله وحده».

إنَّه لا يريد من الإنسان أن يصدِّق ما حلَّ به ولا يشعر به ويتألم، لأنَّ بني البشر لا يصدّقون ولا يعبؤون بحال الآخرين ولا يهتمُّون، وهذا ما شعر به أبو فراس من الناس الذين كانوا حوله يحسدونه على ما كان يريد الوصول إليه، يقول:

الله يعلـــمُ مـــا لقيـــــــ ـــــتُ من الهوى وكفى بعلمِهْ

والله **قويّ عظيم** يقوّي الإنسان المؤمن به، ويقوّي الإنسان الذي يلتجئ إليه طالباً منه القوَّة والمنعة ليقف في وجه المعتدين، ويرى شاعرنا أبو فراس أنَّ الله إذا لم يحرز الإنسان ويحميه فإنَّ أيَّ سلاح لا يقدر على أن يحميه ويبعد عنه الشرَّ، يقول:

إذا الله لـــم يحـــرزْك ممّـــا تخافـــهُ
فلا الدرعُ منّاعٌ ولا السّيفُ قاضـــبُ

لقد حلّت المصائب بأبي فراس من كلِّ جهة لكنَّه لم يكن يقنط ولم يكن يخاف من نتائجها، بل إنَّ هذه المصائب ستبعد عنه ولن تصيبه واحدة منها:

وكنتُ إذا جعلْـتُ اللّـــــه لي سِتراً من النّـــوَبِ
رَمَتْنــــي كـــلُّ حادثـــةٍ وطارقـــةٍ فلـــم تُـــصبِ

ولكن إذا كان الالتجاء إلى غير الله فإنَّ المصائب والرزايا ستلحق بالإنسان وتصيبه وتحلُّ به.

إنَّنا نشعر أنَّ أبا فراس في سجنه كان يبحث عن الخلاص والنجاة بكلّ الوسائل، مرّة بالتوسّل إلى ابن عمّه، ومرَّة بالشكوى إلى كلّ مَنْ يراه لكنَّ ابن عمِّه لم يسعفه، ولم يرأف بحاله وهو القادر على هذا، لكنّ الشاعر لمَّا أيقن أنْ لا مفرّ من السجن وأنَّ الموت عنده صار أفضل من إقامته في السجن ذليلاً، التجأ إلى الله تعالى فقال:

قـــد عَـــذبَ المَـــوتُ بأفواهِنـــا

والموتُ خيرٌ مـــن مَقـــام الـــذليلْ

إنّـــا إلـــى اللهِ لمـــا نابنـــا

وفـــي ســـبيلِ الله خيـــرُ الـــسبيلْ

وكان أبو فراس يشكو إلى الله تعالى بعد أن شكا لقريبه وصديقه لكن ما من مجيب وكان كثيراً ما يبدأ بيتاً من الشعر فيقول: **إلى الله أشكو .**

إنَّه يشكو إلى الله ما رآه من أحوال الناس والدنيا، التي تبدّلت، وصار يحكمها أشخاص قليلو الشأن لا قيمة لهم، فماذا يفعل بهذه الحال التي لا حول له ولا قوَّة إلا الشكوى إلى الله عساه ينقذه من الشرّ الذي سيلحق الناس إذا حكمهم صغير. ويكرِّر مثل هذا التركيب كثيراً :

إلى الله أشكو ما أرى من عشيرة ...

ونراه كحال كثيرين من الناس الذين شكوا حال قبيلته أو عشيرته، لأنَّه يرى أنَّ القريب إذا ما أساء أو أخطأ كان أشدّ وقعاً على النفس والقلب.

ويكرِّر مرَّة أخرى شاكياً فرقة الصديق:

إلى اللهِ أشكو مــن فِراقــكَ لوعــةً
طويْتُ لها بينَ الضلوعِ على جَمْــرِ

إنَّ حكمة أبي فراس الحمداني توزَّعت في ديوانه، وكانت تجربة حياته الشخصيَّة، من هذا ما قاله:

وإنّ البقــا لله فــي كــلّ مَطْلَــبٍ
وإنَّ الفَنا للخَلْقِ والخَلْــقُ ذاهــبُ

إنَّها الحكمة العظيمة التي يعرفها كلُّ إنسان على وجه الأرض، كلُّنا يقول البقاء لله وحده، فلا أحد سيظلُّ على وجه الكون فهو الباقي الحيّ، أمَّا الخلق فإلى الفناء.

ويبدو أنَّ شاعرنا لم يكن يجد العدل بين الناس، وكثيرون أرادوا أن يقلّلوا من شأنه ومنزلته لكنّه لم يهتمّ، لأنَّه يرى أنَّ قضاء الله هو الغالب:

وهل لقضاءِ اللهِ فــي النــاسِ غالــبٌ
وهلْ من قضاءِ اللهِ في الناسِ هــاربُ

إنَّه يسأل سؤالاً يتضمَّن معنى النفي يريد أن يقول لا غالب لقضاء الله ولا مهرب من قضائه.

واعترف أبو فراس بفضل الله عليه، إنَّه يرى أنَّ الله يزيد في خلقه ما يشاء في كلّ وقت يحتاج إليه الإنسان، يقول:

كـــذلكَ الله كـــلَّ وقـــتٍ   يزيدُ في الخلقِ ما يــشاءُ

لذلك ترى الإنسان يرجو العطاء منه، ومَنْ غيره الغنيّ؟ إنَّ نعمه تجلّل الإنسان وتمنحه القوَّة ولا تزول ما دامت من الله:

عسى اللهُ أن يأتِي بخيرٍ فــإنَّ لـــي
عوائِدَ مــن نُعمــاهُ غيــرَ بوائــدِ

وأبو فراس كغيره من الناس إنَّه يرجو الله دائماً أن يحقِّق له أهدافه ويمنحه ما يريد ويطلب، ويرجوه أن يأتيه بالخير ، لأنَّ خيره عميم ووافر وما يمنحه الله للإنسان فإنَّه لا ينتهي ولا يبيد.. .....

ومن الأخلاق الحميدة التي كان يتحلّى بها شاعرنا أبو فراس الحمداني الصلاح والحسنة في أعماله كي تكون قويمة صالحة، بعيدة عن الخطأ، كي لا يتعثَّر فيقع.....

لعلَّ الله يُعقبنـــي صـــلاحاً قويماً أو يقيِّلني العِثـــارا

والصبر من الخلق الذي يعين الإنسان وهذا ما قرأناه في شعر أبي فراس عندما كان سجيناً وتأخّر ابن عمِّه سيف الدولة عن افتدائه، يقول:

صـــبراً لعـــلَّ الله يفـــــتحُ هذه فتحـــاً يـــسيرا

إنَّ إيمان أبي فراس جعله **يحمد الله** على كلِّ ما يحلُّ به ويصيبه ،سوءاً كان أم سروراً، يقول بعد أن رأى أنَّ أحد أصحابه أساء إليه، وصار كالداء الذي لا يبرأ ولا يشفى :

أحمـــدُ اللهَ علـــى مـــا سرَّ مـــن أمـــري وســـاءَ

ونراه يكرِّر كثيراً عبارة «والحمد لله» في شعره، مثل قوله: **ولكنَّني ، والحمد لله حازم .**

وقوله:

الحمد لله حمداً دائماً أبداً أعطاني الدهرُ ما لم يُعْطِه أحدا

إنَّه يحمد الله على الفضائل التي منحه إيَّاها، بل إنَّه لا يرى أنَّ إنساناً آخر قد حصل على ما يطلب ويريد كما حصل هو، إنَّه يرى هذا من فضل الله عليه ، لذلك يشكره ويحمده.

لقد كان أبو فراس كغيره من الناس يدعو الله تعالى في كثير من المواقف لأنّه الوحيد الذي يستجيب لدعاء الإنسان.. وقد أكثر من **الدعاء** له، فهو دعا أن لا يقطع نسل العرب، ودعا أن يرعى الإنسان الوفيّ، القادر، الثائر على عدوّه وهو يقصد من هذا الدعاء النصر..

والدعاء يكون بالخير لمن يحبّ، وكثيراً ما دعا الشعراء القدماء بالسقيا للأرض لتكون ذات خير وفير وعميم، وقد دعا أبو فراس بالسقيا لأرض الموصل فقال:

سقى الله أرضَ المَوصلِ المزنَ إنَّها

لمن حلّها فرضٌ له الحـــبُّ واجـــبُ

ويدعو الله أيضاً ألاَّ يذيقه فقدان الأخ لأنَّه في زمن لم يعد يلقى الأخ أو الصديق أو المخلص..

ويدعو الله أن يكون لطيفاً على قلب الإنسان في حبّه وعشقه وفي كلّ عمل يقوم به.

وممّا يلحظه القارئ أنّ أبا فراس كان لا يتمنَّى لقاء كلّ من لا يحبّه ولا يرى فيه الأنس والسعادة ولا تطيب له الدنيا إذا ابتعد عنه.. كما يدعو أن يبقي له مولاه الذي تتجدَّد في عهده الأيَّام، ويعيش الناس في ظلّه حياة سعيدة.

وكذلك كان يحاول تخفيف المصيبة عن أيّ شخص وقع فيها، وكان يحاول جاهداً أن يعينه ويقوّيه ليتجاوزها ويطلب من الإنسان الصبر على هذه الشدَّة فيقول:

يا مُرزأً بات يبكـي لا معـينَ لـه
أعانَـك اللهُ بالتـسليمِ والجَلَـدِ

لذلك كان يدعو الله ألاَّ يحرمه ممَّن يحبّ، ومن الصديق والقريب لأنَّه يجد فيهم كلّهم المراد والملتجأ والحظّ والمعين للآمال التي يعلقها.

فـلا يحرمَنِّـي اللهُ رؤيـاكَ إنَّهـا
نهايـةُ آمـالي وغايـةُ مَقْـصدي
ولا يحرمَنّـي اللهُ قربَـك إنَّـه
مُرادي من الدّنيا وحَظّي وسُـؤْددي

ويدعو الله أن يكرم سيف الدولة وأن يحميه من الأعداء ويزيد من نعمته، لأنَّ له فضلاً عليه مذ كان صغيراً اعتنى به ونشَّأه هذه التنشئة التي جعلته فارساً عظيماً:

فأبقاهُ الإلهُ لنا طويلاً وزادَ الله نعمَته دواما

فكأنَّك تشعر بمحبّة أبي فراس لكلّ مَنْ حوله لأنَّه يحبّه مادامت على الأرض حياة، ومادامت الحياة في الأرض، زرعاً ونباتاً وطيوراً وإنساناً.

إنَّ كرم الله على الإنسان عميم ووافر يرسله لكلّ مَنْ يطلبه ويريده وهو الكريم، وعلى الإنسان ألاَّ يظنّ نفسه أنَّه يصل إلى مراتب الدنيا ومنازلها العالية من دون جهد وتعب، فيخاطبه قائلاً:

تَرى لنفسِك أمراً وما يرى الله أفضلُ

إذاً أيُّها الإنسان لا تعرف ما يفيدك، ولا تقدِّر ما الذي ينفعك، بل الله هو الذي يرى لك الأمر الحسن، والله دائماً يرى الخير للإنسان، ولكنَّه بالمقابل يحذّر هذا الإنسان فيقول:

لا يفتحُ الله بابَ مكرمةٍ   صاحبُها المستغاثُ يقفلُها

أي إنَّه يطلب من الإنسان أن يرتدع، ويسمح لكلام الله أن يدخل قلبه، ويتأمَّل فيما يقوله له، لأنَّ الله يريد له الخير لكنَّ بعض الناس يأبون هذا ظنّاً منهم أنَّهم الأحسن وأنَّهم الذين يعرفون كلَّ شيء.

إنّ كلّ ما تقدّم وما قرأناه في شعر أبي فراس ترى فيه أو تشعر بمسحة من الخُلُق القويم الذي يمنحه الله تعالى للإنسان. إنّ شاعرنا أبا فراس الحمداني كان مؤمناً بالله يرجوه، يدعوه، يناديه، يخاطبه، يأمل منه أن يعينه على تجاوز المشقّات والمصاعب والآلام، ورأى فيه القادر على كلّ شيء، والناصر له، والرحيم، والرؤوف.. والمعين والملجأ والنصير، يحمده، ويحلف به.. إذا ما أراد أحداً أن يصدّقه.. ولم يكن الشاعر يقول هذا عن عبث بل عن إيمان صادق، وإذا تجاوزنا كلّ الأبيات التي ذكر فيها اسم الله وصفاته فإنَّنا نلقى عدداً من الأبيات نشعر أنَّ الشاعر أراد منها التأكيد على إيمانه ومواقفه، يخاطب فيها الإنسان وهو إنسان، يريد أن يقول إنَّني أنا هذا الإنسان الذي يرجو من الله ما يرجوه يقول:

ومَــنْ لا يُــوقّ الله فهــو ممــزّقُ

ومَــن لــم يعــزَّ الله فهــو ذليــلُ

إذا لــم يُعِنْــك اللهُ فيمــا تريــدُه

فلــيسَ لمخلــوقٍ إليــه ســبيلُ

وإنْ هو لم ينصُرْك لم تلقَ ناصــراً

وإن جــلّ أنــصارٌ وعــزَّ قبيــلُ

إذا مــا وقــاكَ اللهُ أمــراً تخافُــه

فمالَــك ممّــا تَتَّقيــه مقيــلُ

وإن هو لم يرشدكَ في كلِّ مــسَلك

ضــللْتَ ولــو أنَّ الــسماكَ دليــلُ

إذاً هو يريد من الإنسان أن يتَّقي الله، أي أن يكون مؤمناً وأن يعزَّ لأنَّ الله عزيز، وإلاّ ذلّ، ويرى أنَّ الله هو المعين على أيّ شيء تريده، ولا يستطيع أيُّ إنسان أن يحقّق لك السبيل والمرتجى، وهو النصير إذا لم تجد مَنْ ينصرك حتَّى إنَّ القويَّ الجبَّار يعجز أمام نصر الله العظيم، وعليك أن تستدلَّ إلى الله لأنَّه الطريق القويم الصحيح الذي يدلُّ الضائع التائه، ولو كانت نجوم السماء كلُّها دليلاً.

كانت الدولة الحمدانيَّة تهتمُّ كثيراً بالعلوم والآداب وقد شجَّعت العلماء والأدباء على إظهار دور الدولة وكان لسيف الدولة دورٌ كبيرٌ في هذا الجانب، بل إنّ قصره كان مجمعاً علميَّاً يتوافد إليه الأدباء والشعراء الذين كانوا يجتمعون على بابه، ولم تصل شهرة قصر كما وصلت شهرة قصر سيف الدولة.. حتَّى صار مركزاً علميَّاً، ولم يقتصر هذا الجهد على الأدباء والشعراء، بل جذب إليه الأطبَّاء والفلاسفة والعلماء، والمعروف أنّ المتنبّي كان أهمَّ شخصيَّة تقيم في هذا القصر، وهو مَنْ مدح سيف الدولة بعدد وافر من القصائد. وممَّا ساعد في هذا هو الاهتمام الذي كان عند سيف الدولة نفسه فقد كان أديباً وناقداً واستطاع أن يجاري عدداً من الشعراء والأدباء ويكشف لهم أخطاءهم.. أمَّا أبو فراس الحمداني شاعرنا فهو من أهمّ الشعراء الذين نبغوا في عصر الدولة الحمدانيَّة وهو على كلّ حال ابن عمّ سيف الدولة.

ولمَّا قوي واشتدَّ ساعده اصطحبه سيف الدولة الحمداني في غزواته وحروبه، وبدأ يمرّنه على فنون القتال وأساليبه، ويضعه في مواقف صعبة، ويعرّضه للمصاعب التي يمكن

أن تواجهه، فجعل منه فارساً مقداماً شجاعاً مغواراً، يعرف بأمور الحرب، ومواضع الطعن والضرب بالسيف والرمح، وصار قادراً على خوض كلّ أنواع المعارك فحارب قبائل كثيرة وواجه الروم وغيرهم، وأصبح لا يستطيع العيش من دون حروب وملاقاة الأعداء، إذ إنَّه صار واثقاً من بطولته وشجاعته التي تؤهّله مقارعة الأعداء، حتَّى إنه كثيراً ما كان يتضايق إذا لم يصطحبه سيف الدولة في إحدى معاركه أو غزواته وكان يرجو ذلك، لأنَّه كان يرى في نفسه القوَّة التي يدافع فيها عن حياض الدار والوطن.

وربَّما تحقَّقت له أمنيته أن يشارك ابن عمِّه في معاركه مع الروم، لكن نتيجة هذا كان السجن، ويقال إنَّ الشاعر أبا فراس الحمداني قد أُسر مرَّتين عند الروم، فكانت المرَّة الأولى عام ٣٤٨هـ، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، وقد وقع في الأسر بعد إصابته بسهم دخل فخذه، أعاقه من الحركة والسير، وهذا ما سهَّل وقوعه أسيراً في يد الروم. والمرَّة الثانية كانت عام ٣٥١ هـ، ويقال: بل إنَّ الشاعر لم يؤسر إلاَّ مرَّة واحدة في عام ٣٥١ هـ لأنَّ ثمَّة أحداثاً

كثيرة، ومواقف عديدة تدلُّ على هذا وتتَّضح من خلال شعره الذي قاله وهو في السجن، وظلّ أبو فراس في سجنه حتَّى عام ٣٥٥ هـ عندما افتداه ابن عمِّه سيف الدولة الحمداني.

ويُحكى أنَّ سيف الدولة الحمداني لم يشأ أن يفدي الشاعر لسببين رئيسيين: الأوَّل أنَّ ملك الروم يريد أن يفتدي ابن أخته الذي وقع أسيراً عند سيف الدولة بأبي فراس، لكنَّ سيف الدولة رفض ذلك، لأنَّه كان يرى في هذا حطّاً من شأنه. أمَّا السبب الثاني فهو أنَّ سيف الدولة لم يرد أن يفديه لأنَّه أحسَّ من الشاعر الفارس طمعاً في الحكم والملك، فأراد أن يصرفه ويبعده عن وجهه فترة من الزمن كي لا ينافسه على الحكم، ويكون قد أضعف من عزيمته وهمَّته.. وظلَّ إلى أن افتداه كما تقدَّم عام ٣٥٥ هـ.

وقد كان سجنه عند الروم مؤثِّراً في حياته، ترك جروحاً وندوباً نفسيَّة في شخصيَّته، ولم يستطع أن يفعل شيئاً، وكيف يستطيع أن يقوم بأيِّ عمل وهو في السجن؟ فلم يكن عنده إلاَّ الشعر يناجي به نفسه، ويخفّف عنها وطأة الأيَّام وقسوتها

فكان أن قال عدداً من القصائد سُمِّيت (الروميَّات) نسبة إلى بلاد الروم التي كان أسيراً فيها.

فقد آلمه أن يبتعد عن قومه، وآلمه أن يتخلَّى عنه قومه، وفي مقدّمتهم ابن عمّه سيف الدولة الذي كان قادراً على افتدائه، لكنَّه رفض ذلك كما تقدَّم لأنّ شاعرنا أبا فراس يتطلَّع إلى السلطة والحكم، أي أنَّه سينافسه على السلطة التي كان يتمتَّع بها.

وتعدُّ هذه القصائد من أشهر ما نظمه الشاعر أبو فراس، فقد ضمَّنها خبرته في الحياة، وإن كانت قصيرة، وضمَّنها أحاسيسه ومشاعره، وعطفه وحنانه، وألمه وحزنه لما آلت إليه حاله في السجن..

ويتَّضح من خلال هذه القصائد أنَّ الشاعر كان يزداد أسىً وحزناً لأنَّ مَنْ يستطيع فداءه هو ابن عمِّه سيف الدولة الذي لم يكن ليعمل هذا لأسباب قلناها ويأتي في مقدّمتها خوف سيف الدولة من ارتقاء الشاعر وتفكيره بالمنصب وتسلّم السلطة، فكثيراً ما خاطب سيف الدولة يشرح له حاله التي

آلت إليه عسى أن يرقَّ قلبه ويلين، ولكن لم يحصل ما كان يتمنَّاه.

وفي قصيدة من أجمل قصائد الشعر في ديوان أبي فراس وأطولها خاطبه في بداية القصيدة قائلاً:

دعوتُك للجَفْــنِ القَــريحِ المُــسهَّدِ

لــديّ وللنّْــومِ القليــلِ المَــشرَّدِ

وقال له إنَّك أنت الوحيد الذي يمكن أن أخاطبه لأنَّك أنت الذي يُدعى لكلّ أمر عظيم، ولكلّ حال صعبة، وبالمقابل أنا الذي يُفدى..

فقد طالب أبو فراس سيف الدولة أن يفديه أوّل ما يأسر أحد الأعداء، لأنَّه لا يريد أن يصبح في حال يشمت به الأعداء، ويلحّ عليه لافتدائه، لأنَّه فتى شجاع يستطيع مواجهة المصاعب والدفاع عن القبيلة بل تتشرَّف به لأنَّه سيدافع عنها وعن حسبها ونسبها وسيدافع عنها بلسانه وحسامه.

لقد أكثر من عتاب ابن عمِّه وأرسل له عدداً من القصائد من وراء القضبان، يستعطفه، ويستجديه أن يحرّره، فكان

في إحدى قصائده يذكّره بأنَّه الحليم والكريم والعطوف، فهو الذي ربَّاه وأنشأه ودفع عنه الخطوب، وخفَّف من نوائب الدهر، ويعترف بهذا فيقول:

وأصبَحْتُ مِنكَ فإنْ كانَ فضلٌ

وإن كان نقصٌ فأنتَ السَّببْ

ويذكّره بأنَّهما قريبان فهل نسي سيف الدولة ذلك :

ألستُ وإيَّاك من أسرةٍ وبيني وبينَك فوقَ النَّسبْ

وقريب من هذا قوله في قصيدة أخرى:

وفَرعي فرعُك السّامي المعلّى

وأصلي أصلُك الزّاكي وحَسْبُ

نعم لقد كانت حسرته كبيرة ومؤثّرة في نفسه أن يأتي الظلم من ابن عمّه، ممَّن تجاوز النسب الواحد. حتَّى وصلت به الحال إلى أن يقول:

زَماني كلُّه غَضَبُ وعَتبُ وأنتَ عليّ والأيامُ إلبُ

أي اجتمعتَ أنت والأيَّام عليّ يا سيف الدولة، وما كان يحزنه أكثر شعوره أنَّ لابن عمِّه دوراً في أن تُرفع في

وجهه السيوف، لكنَّه مع هذا كان يرى أنَّ ابن عمِّه على حقّ، وربَّما كان هذا خوفاً من زيادة نقمته عليه.

لقد شعر أبو فراس أنَّ بعض قومه لا يريدون أن يخرج من السجن فلا يرى إلاَّ الشكوى لله:

إلى الله أشكو عُصْبَةً من عــشيرتي

يُسيئونَ فيَّ القَوْلَ غيبــاً ومــشهدا

ويعاتبهم عتاباً شديداً لأنَّهم تمنَّوا أن يفقدوه، وإذا لم يشاؤوا أن يفتدوه فإنَّه لن يحزن وإذا رأوا أنَّ غيره أهل لأمر حسن فليكن هذا لهم لأنَّه يرى نفسه بخير مادام قومه بخير.

وأكثر من هذا فإنَّ أبا فراس لم يكره ابن عمِّه، ويقول له: سأظلُّ حليفك، وإنَّك ولو تركتني فإنَّني لن أترك شكرك ما حييت ويضيف:

كن كيــفَ شــئتَ فــإنَّني　　ذاك المواسِي والمــشارِكْ

وكان **حنين الشاعر إلى وطنه وأهله كبيراً** على الرغم من شجاعته وصبره وقوَّته، لكنَّ هذا لم يكن يمنع الشاعر من أن يرقّ قلبه ويحنو ولاسيَّما باتجاه أسرته وأمِّه، وابنته.

فإذا ما حلَّ الليل ونام الناس ظلَّ أبو فراس ساهراً من همّ وحزن، وزادت منهما ريح شآمية تتَّصل بقلبه، حملت له رسالة من الحبيب فهاج به الشوق والحنين ويكاد يختصر حاله الحزينة وحنينه في بيت جميل من الشعر فيقول:

فهو أسيرُ الجسمِ في بلدةٍ وهو أسيرُ القَلبِ في أخرى

إنَّه منقسم على حاله، جسده في مكان وقلبه في مكان آخر، فما أصعب هذه الحال على الإنسان! أيَّاً كانت حاله، فكيف مَنْ كانت حاله سجينة القلب والجسد؟!

وكان أكثر ما يتألَّم له حزن أمّه التي كانت تبكيه وكانت بعيدة عنه وهو في السجن، وقد أحسَّ أنَّ أمّه تتذلَّل لإنقاذه من السجن، وكان يدرك وهو بعيد عنها أنَّ عواطفها تتغلَّب عليها، وتبكي ابنها، لكنَّها كانت تعود خائبة، لم تلقَ الجواب ولم تلقَ العطف والحنان اللذين كان أبو فراس يأمل أن يلقاهما أيضاً من سيف الدولة.

كانت تعرف ما خاطبها به ابنها بمصابه الجليل وعزائه الجميل، والجراح والأسر والاشتياق والغربة، وكلّ ما كان

يثقل كاهليه لقد كان يشعر أنَّ هذا الزمن يخون ويغدر وأنَّ الغدر في الناس شيمة.. ويشعر أنَّ أمّه تبكيه بكاءً طويلاً:

وإنّ وراءَ الســـترِ أمَّـــاً بكاؤهـــا

علـــيّ وإن طـــالَ الزّمـــانُ طويـــلُ

ومع هذا كان يشجّعها ويطلب منها التحمّل والصبر، فإنَّه رسول إلى الخير، ورجاها ألاَّ تحبط أو تيأس لأنَّ الصبر جميل وكلُّ ملمَّة سوف تزول:

ويا أمَّتا صَبْراً فكلُّ ملمّةٍ تجلّى على عِلاّتها وتَــزولُ

ثمَّ يذكّرها بنساء قبلها استطعن الصبر وحقَّقن لهنَّ ما أردن، يذكّرها بذات النطاقين لتكون لها أسوة، وطلب منها ألاَّ تبكي لأنَّ البكاء لم يردّ ميتاً يوماً، ثمَّ أسدى إليها بعض الحكمة، فالإنسان الذي لا يعزّه الله ذليل، ويختم كلامه في قصيدة من أجمل قصائده فيقول:

فإمَّـــا حيـــاة فـــي فنـــاهُ عزيـــزةٌ

وإمّـــا ممَـــاتٌ فـــي ذُراه جميـــلُ

لكنَّ المصيبة التي حلَّت بالشاعر فكانت عظيمة هي موت أمّه وهو في السجن، فخاطب سيف الدولة بقصيدة مؤثّرة جدّاً يقول في أوّلها:

أيا أمّ الأسير سَقاكِ غيثٌ	نكره منكِ ما لقي الأســيرُ
أيا أمّ الأسيرِ سَقاك غيثٌ	تحيَّر لا يُقــيمُ ولا يَــسيرُ
أيا أمّ الأسيرِ سقَاك غيثٌ	إلى من بالفِدا يأتي البَشيرُ

ثمَّ يدعو الدنيا أن تبكيها، ويطلب من الليل الذي كانت تسهره وحيدةً تنتظر الفجر عسى أن يفرّج عن ابنها، ومن كلّ يوم صامت فيه صابرة، ومن كلّ مضطهد، ومسكين وفقير. وكان يتألَّم لأنَّه يشعر بأنَّ في نفسها أسراراً كثيرة دفنت معها، ويحزن أكثر لأنَّه لم يعد لديه من يشكو له همَّه فقد ضاقت الصدور:

إلى مَــنْ أشــتكي ولِمَــنّ أُنــاجِي

وقد ضاقَتْ بِمــا فيهــا الــصّدورُ

قال ما قاله من شعر والبكاء يجرح قلبه وفؤاده ويجعله ضعيفاً، فما كان إلاَّ أن بثَّ أشجانه وعواطفه بشعره الذي

قاله من وراء القضبان، فهو لايملك غير هذا، إنّه كان يحنُّ إلى ملاعب الطفولة التي عاش فيها طفولته.

ولم تكن حال الشاعر أحسن حالاً من حال تلك الحمامة التي وقفت على غصن شجرة تنوح كأنَّها تردّد صدى نفس الشاعر، فدعاها إلى مشاركته بالأحزان فقال لها:

أجارتَنا ما أنْــصَفَ الــدّهرُ بيننــا

تعــالَي أقاسِــمْك الهُمــومَ تعــالي

يقول لها إنَّني حزين مثلك على فراق الأحبّة، أودُّ لو أذرف الدموع، لكنَّ نفسي الأبيَّة تأبى هذا لأنّ دموعي غالية مع أنَّ روحي صارت ضعيفة، وتتردَّد في جسم بالٍ أنحله الهمّ والحزن والأسر.

لم يؤثر السجن في نفس أبي فراس، ولم يضعفه، بل زاده قوَّة وشجاعة وفخراً بنفسه، لأنَّ مَنْ يُسجن إنَّما هو مَنْ يقوى على الآخرين ويبزّهم ويتفوَّق عليهم، ولكن يؤلمه ألاَّ يفدى من ابن عمّه وأن يشمت به الآخرون، لكنَّ هذه الشماتة وذلك الحسد كان يواجههما بشخصيَّة قويَّة قادرة على الوقوف في وجوههم جميعاً.

إنَّه لم يعد يلقى الخليل ولا الصاحب ولا الصديق، إنَّه لن يتأثَّر إن ظلمه الدهر وقسا عليه، ويخاطب حسَّاده فيقول:

أيا جاهداً في نَيْلِ ما نِلْتُ من عــلا

رويدَك إنّــي نلتُهــا غيــرَ جاهــدِ

إنَّه قويٌّ مرير على الأعداء، صابر على ما أصابه، قادر على حماية قومه وعشيرته:

منعتُ حِمى قومي وسُدْت عَشيرتي

وقلّدْتُ أهلي غُرّ هــذي القلائــدِ

وكان يمزج بين حنينه وعتابه، ووعظه وتأنيبه، فتراه يلين ويلطف، حتَّى يصبح رقيق القلب كأنَّه الطفل الصغير فيقول:

إنّ فــي الأســرِ لــصبّا دَمعُه في الخَــدِّ صــبّ

هو في الـــرُّومِ مقــيمْ وله في الــشّــامِ قلــبُ

مُــستجدٌّ لــم يُــصادِفْ عوضاً عمَّـــنْ يحــبّ

ولاحظنا هذه بوضوح عندما رثى أمَّه وهو في السجن، حتَّى لتشعر أنَّه الطفل الحزين يبكي على أمّه لمّا شعر أنَّ الدّنيا حرمته كلَّ شيء بعد فقدان أمّه فإلى مَنْ يشكو، ومَنْ سيناجي!!.

لقد وجدنا أنَّ شعر أبي فراس الحمداني في سجنه شعر وجدانيّ صادق صورَّ حال الشاعر، وعكس مشاعره وأحاسيسه التي كانت تنتابه وتعتصر قلبه ألماً وحزناً وعتاباً وشكوى.

وما أصعب العيد يمرّ عليه وهو في السجن، يخاطبه فيقول:

يا عيدُ ما عدْتَ بمَحبوبٍ   على مَعنّى القلْبِ مَكروبِ

لقد كان في وحشة بعيداً عن الأهل والأحبَّة، طلع العيد ولكنَّه لم ينعم به، لم يشعر بالوجه الحسن يهنّئه ولا بالطيب يعطّر مكانه فيلوم الدهر:

مالي وللدّهرِ وأحداثِـــه؟   لقد رَماني بالأعاجيـــبِ

ولم يدم فرح الشاعر الأسير طويلاً لأنَّه توفّي في العام التالي لخروجه من السجن سنة ٣٥٦ هـــ / ٩٦٦ م، ويقال إنَّ وفاته كانت عندما أراد أن يحتلّ مدينة حمص، ويصبح والياً عليها، لكنَّه هُزم من الجيش المعادي، وقُتل هناك، ويُقال أيضاً إنَّ جثّته ظلَّت مطروحة في البرِّية إلى أن جاء بعض الأعراب فكفَّنه ودفنه.

لقد تميَّزت حياة أبي فراس الحمداني بأنَّها قصيرة لم تزد على سبعة وثلاثين عاماً، لكنَّها كانت حياة الفارس الأبيّ الشجاع الذي كان يرنو إلى السلطة والحكمة، ومنعه من ذلك سجنه في بلاد الروم، وعدم افتداء ابن عمِّه سيف الدولة له،

فقضى أربع سنوات من حياته في سجنه، خرج بعدها ليعيش عاماً واحداً ثمَّ يموت في أحد ميادين المعارك..

لقد كانت حياة أبي فراس تحمل المتناقضات، وتحمل الكثير من الأضداد وذلك بسبب ما كان يعانيه من عشيرته، ونسبه، وغيرة الكثيرين وحسدهم حتَّى في سجنه.

والمعروف أنَّ الحكمة غرض من أغراض الشعر العربيّ، وكثيراً ما طرقه الشعراء الذين يعيشون سنين طويلة، لا قصيرة، ويكون عندهم تجارب شخصيَّة في الحياة، لكنَّ هذه القاعدة ليست مطّردة، والمعادلة ليست صحيحة، فقد كانت حياة أبي فراس الحمداني قصيرة ومع هذا فقد كان في شعره ما يدلُّ على أنَّه حكيم ، وهذا واضح من كثرة أبيات الحكمة التي تناثرت في ديوان الشاعر كأنَّها الدرر واللؤلؤ الثمين الذي يزيّن صفحات ديوانه وما أكثرها، وما أعظمها، وما أجملها، وما أبلغها!

إنَّ مَنْ يقرأ الحكمة في شعر أبي فراس يجد نفسه كأنَّه يقرأ في شعر المتنبّي أو زهير بن أبي سلمى الشاعرين اللذين أجادا في حكمهما..

لقد جاءت الحكمة في شعر أبي فراس مبثوثة في تضاعيف قصائده، باستثناء قصائد قليلة كان عدد أبياتها قليلاً كانت كلّها في الحكمة.. ولن نقف عند كلّ أبيات الحكمة في شعره لأنَّها كثيرة، يكفي أن نقف على الأهمّ والأجمل، بحيث نتطرَّق فيها إلى أهمّ الموضوعات التي ذكرت الحكمة فيها.

آ- عرفنا أنَّ نفس أبي فراس كانت تنزع إلى المجد والولاية والسلطة والحكمة، وهذا ما جعله يأبى الذلَّ والهوان، بل يفخر بنفسه، وبما يتَّصف به من خلق، وأخلاق وشيم وحسب ونسب، وكان يرفض أن يصل إلى المجد بالأماني والرجاء، فهو يرى أن ليس كلّ إنسان يستطيع الوصول إلى المجد:

المرء حيث يضع نفسه

وعلى الإنسان أن يجاهد في سبيل الوصول، لأنَّ طرقه ليست خفيَّة، بل واضحة لمن يريد الوصول، ولكن بالسيف وحده وإلاَّ فالذلُّ له نصيب، قال:

ومَنْ كانَ غيرَ السَّيفِ كافلُ رزقِه

فللــذلِّ منـــه لا محالـــةَ جانـــبُ

والسيف هو صديق الإنسان، وهو الحلية الجميلة التي تزين جنب الفارس الشجاع، يحميه ويدافع عن نفسه، والحكمة الجميلة التي أطلقها الشاعر ألاّ يتقلَّد أيَّ حلية إلاَّ إذا كانت حسنة، جميلة، معبّرة، ومَنْ غير السيف كذلك يقول:

لا تتقلَّـــد مـــا يروقُـــك حَلْيُـــه

تقلَّدْ إذا حاربتَ ما كـــانَ أقطعَـــا

ويرى أبو فراس أنَّ الفرار لا ينجي من القدر بل هو خوف وجُبْن يقع في شرّهما الإنسان الضعيف، ولو كان الفرار هو المنجي الوحيد فعلى الإنسان أن يبتعد عنه وبالمقابل فإنَّه يرى الصبر أعظم وهو المنجي لأيّ إنسان تعترضه المصاعب والهموم......

إذا لم يَكن يُنجي الفِرارُ من الردى

على حالةٍ فالصّبرُ أرجـــى وأحـــزمُ

إنَّ الفخر الذي تميَّز به أبو فراس جعله لا يهاب الموت، ومَنْ أراد أن يعتلي المناصب عليه أن يضحّي في سبيلها بكلّ غالٍ ونفيس حتَّى النفس، وهي أغلى ما يملكه الإنسان وثمَّة بيتٌ في الحكمة في هذا الجانب، وهو من أشهر أبيات الحكمة في الشعر العربيّ، يقول:

تهونُ علينا فـــي المعـــالي نفوسُــنا

ومن يَخطبِ الحَسناءَ لم يُغلِها المهــرُ

وقريب منه قوله:

وأهنتُ نفــسي للرّمــاحِ وإنَّــه

مَن لم يَهنْ بينَ القنا لــم يُكــرمِ

وكأنَّه في البيت الثاني يريد أن يوضح ما قصده في الأوَّل، فهو أطلق الحكمة، ومن ثمَّ طبَّقها على نفسه، فهو قد أهان نفسه للرماح والنبال ، ومن لم يهنها هكذا فإنَّه لن يحقّق المجد ولن يكرم.. .. ولا ينال العزَّ مَنْ لم يعزم على الأمر:

عزّ الأنـــام وأنـــتَ تعلــمُ أنَّــه

ما إن ينالُ العِزَّ مَن لــم يَعــزمِ

هكذا يجد أبو فراس العزَّ، والمجد في ساحات القتال بين الرماح والقنا، وهذا لا يتحقَّق إذا لم يعزم الإنسان على أمره وهذا يتطلَّب من الإنسان أيضاً أن يترك شهوات الدنيا وأن يحمل نفسه على هذا:

احملِ النّفسَ إن أردْتَ لها العــزْ

وعلى تَركِ بَعضِ مـــا تـــشتهيه

ب- يتَّضح من حِكَم أبي فراس الحمداني أنَّ جانباً منها كان يخصُّ الأصحاب والأعداء، والحسَّاد والشامتين وإنَّك لتجد الشاعر دائم البحث عن الصديق الوفيّ ،لكنَّه لم يكن يجده بل وجد العدوَّ، واللئيم، والجبان ،لأنَّ الغدر قد تسرَّب إلى نفس الإنسان وتشرَّبته هذه النفس، ولأنَّ قلَّة الوفاء صارت سمة من سمات معظم الناس حتَّى وصل الغدر وقلّة الوفاء إلى الخيانة ويكفي الإنسان خيانة صديق حتَّى يرى أنَّ الدنيا اسودَّت في وجهه، وصار غير قادر على مجاراة الإنسانيَّة بل يبتعد عنها ابتعاد الأصدقاء عنه.

كَثُرَ الغَدرُ والخيانـــةُ فـــي النّـــا

سِ فما إنْ أرى صَديقاً صَـــدُوقا

قلَّ أهــلُ الوفــاءِ واتَّبــع النّــا

سُ من الغَدرِ والجفــاء طَريقــا

هذه هي حال الدنيا عند أبي فراس يختصرها في هذين البيتين الجميلين.

لقد عانى أبو فراس كثيراً من قلَّة وفاء الناس وغدرهم، وحسدهم، لذلك كثرت الأبيات الشعريَّة التي بثَّها في قصائد

الديوان، بل إنَّه خصَّص مقاطع شعريَّة في الحكمة في هذا الجانب.... وفي قطعة من أربعة أبيات يؤكّد أنَّ الناس قلّ عندهم النظر إلى العُلا والإنسانيَّة، وكثر – بالمقابل - اللوم فجعلوا لهم طرقاً يسيرون فيها بكلّ اتّجاه يوزّعونه على الناس....

لقد صار هؤلاء قطعة من الزمان الذي يعيشون فيه، زمان الغدر والخيانة، وقد وجد في البيت الأخير من هذه القطعة أنَّ الناس نوعان:

فإمّــا عــدوٌ للزّمــانِ وأهلِــه

وإمّــا جبــانٌ لا أبالــك باخــلُ

وبئس هذان النوعان، وبئس هذا الزمان يوزَّع فيه الناس بين العدوّ والجبان.

هكذا حال الزمان وأهله عند الشاعر صَعُب عليه الصديق وعَزَّ أن يجده، وكذا الصاحب الذي أراد أن يكون صاحباً في بشره ووجهه ولسانه، ولكنَّه لم يجد شيئاً من هذا، لقد وصلت حال أبي فراس إلى أن يختار الوحدة والانفراد والانعزال بعد أن فقد كلَّ مقوّمات الصداقة والصحبة عند ناس زمانه.

وقلنا إنَّ شاعرنا كان يبحث عن الصديق فلم يجده، وكذلك الحال كان يبحث عن القريب الصافي الودّ، والأخ الذي ينتسب إليه بوشائج القربى التي تربط بين الأخوة، لكنَّ شاعرنا جال ودار في بلاد الله الواسعة لكنّه عاد خائباً.. ... إنَّ أبا فراس لم يجد الأخ لأنَّ الأخ – برأيه - هو الذي يصفو أو يودُّ أو يحبُّ، وليس الأخ أخاً بالنسب والقربى، وهذا الأخ لم يَحظَ به شاعرنا فزاد ألمه ألماً....

وما أخوك الذي يدنو بهِ نــسبٌ

لكنْ أخوك الذي تَصْفو ضَــمائره

وتجاوز أبو فراس الحكم على هذا الزمان ورجاله، وقلَّة أصحابه وأصدقائه فيه، بعد أن ذمّهم جميعاً، تجاوز ذلك كلّه ليحذّر الإنسان من أن يغرّ بالإنسان، فليس كلُّ مَنْ تظنُّه صديقاً كذلك، وكذلك ليس كلُّ مَنْ تحسب أنَّه أخ هو كذلك.

فلا تغترِرْ بالناسِ، ما كلُّ مَن تــرى

أخاك إذا أوضعْتَ في الأمر أوضَــعا

إنَّ من لم يجد الصديق أو الصاحب أو الأخ الذي هو قريب فإنَّه سيجد خلاف ذلك، سيلتقي بالعدوّ، وما أكثر الأعداء عند

الإنسان الطموح، وما أكثر الحسّاد الذين لا يريدون لغيرهم خيراً بل يحاولون دائماً أن يقلّلوا من شأنه وقد لقي أبو فراس من هؤلاء الكثير حتَّى الأقارب، لذلك تراه يحذّر منهم لأنَّه جرّبهم، وليس بالضرورة أن يكون العدوُّ بعيداً عن أسرته، بل قد يكون قريبه، وممّا قاله في هذا الجانب:

وأعظمُ أعداءِ الرّجـــالِ ثقاتهـــا

وأهونُ من عاديته مَنْ تُحـــارِبُ

وشرّ عدوّيك الــذي لا تحـــاربُ

وخيرُ خليلَيْك الــذي لا تناسِـــبُ

إنَّها فلسفة التعامل مع الناس من خلال تجربة الشاعر في حياته التي لم تطل بل كانت قصيرة، فالعدوُّ قد يكون عظيماً إذا كان ذا ثقة، والعدوُّ قد يكون هيّناً سهل الجانب إذا حاربته، ولكنَّ شرّ العدوِّ مَنْ لا تحاربه، وخير الأصدقاء الصديق البعيد بنسبه عن نسبك، إنَّها غصّة مرّة باح بها أبو فراس الحمداني.

ويحاول الشاعر أن يخفّف من وطأة الدهر بأحزانه وآلامه ومصائبه، ويحاول أن يبعد ذمّ الناس والزمن الذي غدر به وخان كما فعل معه الناس. لذلك نصح الناس بأن يتجاوزوا هذا كلَّه، وألاَّ يقنطوا أو ييئسوا، لأنَّ الحياة قصيرة، فعلى

الإنسان أن يتجاوز ما يحلّ به، وكأنَّه كان يتوقَّع أنَّ حياته لن تطول، فكأنَّه في خطابه للناس، كان يخاطب نفسه يقول:

فالعمرُ أقصرُ مــدَّةً ممّــا تــرى

وعساك أن تُكفى الذي تَخــشاه

وهذه الحياة تسير أيَّامها وسنواتها تحمل الناس في سفينة، لكنّ هذه السفينة يصعب ركوبها، ويصعب على الإنسان قيادتها فتراه يحرّض الإنسان أن يتجاوز آلامه ومشكلاته، وأن يكون ربّاناً ماهراً في العيش في حياته، فكأنّه الربَّان الذي يجيد قيادة سفينته نحو برّ الأمان وبرّ الأمل، نحو الشاطئ الذي يكون الوصول إليه بمنزلة السّلامة.

ألا إنَّمــا الــدّنيا مطيَّــة راكــبٍ

عَلا راكبوها ظهرَ أعوجَ أَحْــدبا

ولكنَّه يحذِّر الإنسان من أنَّ هذه السفينة صعب قيادتها فإنَّها قد تغدر كما يغدر الناس، فعليه ألاَّ يأمن جانبها، وإن أحسّ أنَّ ثمَّة ما يريح، لكنّ الحذر واجب من أذاها.

جــ- إنَّنا نسير مع شاعرنا شيئاً فشيئاً في خطوات الحياة، نتعلّم منه ونتَّعظ ونعتبر بما قدّمه لنا من حكم من تجربة قصيرة مع عشيرته وأهله وكلّ من يحيط به.. وجدناه

يَحْذَر ويُحذّر، ورأيناه الباحث عن صديق فلم يجده، وعن الأخ فلم يلقه وعن الزمان الجميل لكنَّه خانه.. فماذا يفعل ؟.

إنَّ الإنسان لا يقدر أن يركب هول البحر بسفينة لا يجيد الربّان قيادتها، ولا يستطيع أن يتجاوز عقبات يئنُّ تحتها الكبار والقادة.. لكن هذه هي حاله، فإذا ما وقع القضاء فليس أمامه إلاَّ الله تعالى، ونِعْمَ المعين، فالحكم لله وحده، إنَّها الحكمة منذ الأزل، فالله باق والناس تذهب فلا رادَّ ولا غالب ولا هارب.

وهلْ لقضاءِ اللهِ فـي النـاسِ غالـبٌ

وهل من قضَاءِ الله في الناسِ هـاربُ

لقد كرّر أبو فراس هذا المعنى بأساليب متنوّعة كثيرة ربّما ليؤكّد لنا حقيقة مهمَّة أنّ الله وحده القادر على كلّ شيء، هو الذي يلجأ إليه الإنسان بعد ظلم ذويه وزمنه، وغدرهما وخيانتهما، ونحن لاحظنا أنَّ الشاعر إنسان مؤمن، أكثر من ذكر الله وحمده فإليه التجأ، وكان نِعْمَ المعين.

ولا بأس من أن نقرأ بيتاً آخر في هذا الجانب:

وما الأمرُ إلاّ في يـدِ الله كلُّـه

فما شاءَ من أمرٍ فمَنْ ذا يُغالِبه؟

د- وتوزَّعت الحكمة في ديوان الشاعر في عدد من الموضوعات الأخرى، لكن أقلّ ممّا وردت فيما سيق، أي بتفاوت من حيث العدد، وهذا يعود إلى ما كان يعانيه الشاعر.

إنَّ أبا فراس لم يجد في الحبِّ والعشق شيئاً عذباً أو جميلاً لأنَّه كان يراه صدى لعذاباته في حياته وفي حبّه، فلم يكن يرى في الحبِّ إلاّ العتاب والهجر والصبر والطعم المرّ، ومن أبياته قوله:

لقد ضلّ من تحوي هواه خَريدةٌ

وقد ذلّ من تقضي عليه كعــابُ

ومن هذا أنَّه كان يرى أنّ ما على وجه الأرض تراب، فلا غنى ولا ذهب، ولا جاه، والإنسان دائماً يبحث عن الغنى وجمع المال، لكنَّه لا يعرف أنّ الغنى هو غنى النفس هو الصدق، الودّ، العمل الخيّر.

إذا صَحّ منك الودّ فالمالُ هــيّن

وكلُّ الذي فوقَ التــرابِ تــرابُ

والأجمل من هذا البيت قوله:

ما كلّ مافوقَ البــسيطةِ كافيــاً

فإذا قنعْتَ فكــلّ شــيءٍ كــافِ

فالطمع عند الإنسان كبير منذ الأزل، والقناعة كنز لا يفنى لمن أراد أن يكون غنيًّاً، إنَّ ما يكفي الإنسان هو ما يقتات به ويعيش بفضله، لا بجمع المال، فلم يكن المال مرَّةً إلاّ مصيبة تحلّ على مالكها وعلى من يطمع بها.

لقد رافقنا أبا فراس الحمداني في رحلة غنيّة وفكريّة، تمثَّلت في أبيات الحكمة التي بثّها في ديوانه، فكانت لنا منارات نهتدي بها ونأخذ العبرة والعِظة والنصيحة منها، وقد لاحظنا أنّ كلّ هذه الأبيات كانت صادقة لأنَّها تمثّل شخصيَّة أبي فراس نفسه..

إنّ شعر الحكمة الذي قرأناه في ديوان الشاعر لا يقلّ أهميَّة عن شعر الروميَّات الذي وقفنا عليه، بل إنَّه يفوقه في بعض الأحيان، وإن كانا متلازمين لأنَّهما اختصار شخصيَّة الشاعر.. وقد حاولت اختيار ما رأيته مناسباً، ولكنّ هذا لا يعني أنَّ ما لم أثبته كان ضعيفاً أو أقلّ شأناً.

خاتمة

شخصيَّة أبي فراس الحَمْداني

بين الطموح والدموع

وجدنا من قراءة شعر أبي فراس الحمداني أنّ شخصيَّة الشاعر تميَّزت بصفتين رئيسيَّتين على الرغم من قصرها وهما الضعيفة التي تمثَّلت بالدموع، والقويَّة التي تميَّزت بالفخر..

وربَّما كانت هذه بسبب الحياة المضطربة التي عاشها، وهو الذي عانى كثيراً من حزن ويأس في سجنه وخارجه، وممّا عاناه من حاسديه، ومَنْ رآهم الأعداء والخصوم، ومن أقربائه ومن فراق الأحبَّة، أو الابتعاد عنهم، الأمّ والابنة والحبيبة.

أمَّا الفخر فقد عرفنا كثيراً منه، الكثير من الفخر بأصله وحسبه ونسبه، بعد أن أنكره عليه كثيرون ويعجب كيف ينكرون وهو وابن عمّه سيف الدولة من أصل واحد ونسب واحد.

يقول مخاطباً سيف الدولة:

ومِن أيــن ينكرُنـــي الأبعــدونَ

أمِن نَقْص جــدّ؟ أم نقــصِ أب؟

ألــستُ وإيَّـــاك مـــن أســـرةٍ

وبيني وبينــك فــوقَ النَّــسب؟

ولاحظت أنّ معاني الفخر كثرت كثرة صفاته الحميدة التي فاخر بها حتَّى وصل إلى السموّ والمجد وإلى مرتبة يصعب على الآخرين الوصول إليها:

أيا جاهداً في نَيلِ ما نلْت من عُلا

رويدَك إنّي نِلتُهــا غيــرَ جاهــدِ

لكنّ هذه الشخصيَّة القويَّة ضعفت وصار قلبُ صاحبها رقيقاً ضعيفاً في حبّه وغزله وعشقه، فهو يسهر والحبيب ينام، أمَّا الدموع فكانت غزيرة:

إنّ الحبيبَ الذي هام الفؤادُ بـــه

ينامُ عن طول ليلٍ أنت ســـاهِرُه

ما أنس لا أنسَ يوم البين موقفنا

والشوق ينهى البكا عنّي ويأمره

إنَّ أبا فراس أقرّ بغرامه كما يشاء للحبيب، وهو لا ينسى ولايجحد، لكنَّ الحبيب ينسى ويجحد.. وهو يرى أنَّ العاشقين دائماً في أحزان، وهو واحد منهم يبكي للباكي، ويولّه للولهان.

ولقد جعلْتُ الحبَّ سترَ مــدامعي

وبغيـــرِه عينـــايَ تـــنهملان

وتحبُّ نفسي العاشــقينَ لأنّهــم

مثلي على كنفٍ مــن الأحــزان

فَضَلَتْ لديَّ مدامعٌ فبكيت للــــ

باكي بهــا، وولهــن للولهــان

ولم يبق إلاَّ الحمامة التي وقفت تبكي على شبَّاك سجنه وتندب، فبثّها الشكوى والحزن والحنين والأنين من روح ضعيفة تتردَّد في الجسم الذي أضناه الشوق وأنهكه الألم.

يقول :

أقولُ وقد ناحَتْ بقُربي حمامــةٌ

أيا جارتا هل تــشعرين بحــالي

إلى أن يقول:

لقد كنت أولى منك بالدّمعِ مقلــةً

ولكنَّ دَمْعي في الحوادثِ غــالِ

وتكاد قصيدته المطّولة "أراك عصيّ الدّمع " هي القصيدة التي تمثّل شخصيَّة أبي فراس في الحزن والطموح معاً، نختار منها بعض الأبيات وتكون خاتمة لكتابنا:

أراكَ عصيَّ الدّمعِ شيمتُك الصّبرُ

أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمــرُ

بلى أنا مشتاقٌ وعِنــدي لوعــةٌ

ولكنّ مثلي لا يــذاعُ لــه سِــرٌّ

إذا الليلُ أضواني بَسطْتُ يدَ الهوى

وأذللْتُ دمعاً من خلائقه الكبــرُ

وفيتُ وفي بعضِ الوفــاءِ مذلّــة

لآنسة في الحيِّ شيمتُها الغــدرُ

تُسائِلُني من أنتَ وهــي عليمــةٌ

وهل بفتىً مثلي على حالهِ نكرُ؟

فلا تُنكرِيني يا بنــةَ العــمّ إنّــه
ليعرِفُ مَنْ أنكرتِه البدوُ والحضرُ
سيذكُرني قومي إذا جــدّ جــدُّهم
وفي الليلةِ الظَّلماءِ يُفتقدُ البــدرُ

الطبعة الأولى / ٢٠١٣م
عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

أراكَ عصيَّ الدّمعِ شيمتُك الصّبرُ
أما للهوى نهيٌّ عليك ولا أمرُ
بلى أنا مشتاقٌ وعِندي لوعةٌ
ولكنّ مثلي لا يذاعُ لـــه سِرُّ
إذا الليلُ أضواني بَسطْتُ يدَ الهوى
وأذللْتُ دمعاً من خلائقه الكبرُ
وفيتُ وفي بعضِ الوفاءِ مذلّة
لآنسةٍ في الحيِّ شيمتُها الغدرُ
تُسائِلُني من أنتَ وهي عليمةٌ
وهل بفتىً مثلي على حالـهِ نكرُ؟
فلا تُنكريني يابنةَ العمّ إنّه
ليعرفُ مَنْ أنكرتِه البدوُ والحضرُ
سيذكُرني قومي إذا جدّ جدُّهم
وفي الليلةِ الظَّلمـــاءِ يُفتقدُ البدرُ

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣م

سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها